الفصل الرابع
سقوط امبراطورية الخزر

ننتقل الآن إلى الحديث عن سقوط هذه الإمبراطورية، وهو الفصل الرابع من هذا الكتاب الهام. وقد سبق أن تكلمنا عن العلاقات بين الروس والبوزنطيين فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، أما الصدام بين الروس والخزر فليس بين أيدينا من المصادر ما يقارن بالمصادر التى تيسرت لنا عن هذه العلاقات، ذلك أن محفوظات إتل، إن كان لها فى يوم من الأيام وجود، قد ذهبت الآن مع الريح، ولا مناص لنا من الرجوع إلى أخبار المصادر العربية المتفرقة وملاحظاتها العابرة عن تاريخ المائتى سنة الأخيرة من إمبراطورية الخزر، وتمتد هذه الحقبة من احتلال الروس لمدينة كييف حوالى سنة ٨٦٢م حتى تدمير إتل على يد سفياتوسلاف حوالى سنة ٩٦٥م. وبضياع كييف وتقهقر المجر إلى هنغاريا لم تعد الأقاليم الغربية السابقة التابعة لهذه الإمبراطورية خاضعة لسيطرة خاقان اللهم إلا أجزاء من القرم، وأصبح أمير الروس على كييف يستطيع أن يأمر القبائل الصقلبية فى حوض الدنيبر بألا يؤدوا أى مال للخزر.

ولعل الخزر كانوا راغبين فى أن يسكتوا عن ضياع سيادتهم على الغرب، إلا أن الروس كانوا يغيرون شيئًا فشيئًا على الشرق هابطين نهر الفولجا موغلين فى الأقاليم القائمة حول بحر قزوين، فقد كانت البلاد الإسلامية التى تحف بالنصف الجنوبى من هذا البحر - وهى جيلان وشروان وطبرستان وجرجان - هدفًا يثير أطماع أساطيل قراصنة الشمال فيتخذون هذه البلاد ميدانًا للسلب والنهب ومراكز تجارية يتاجرون فيها مع الخلافة الإسلامية، ومع ذلك فقد كان الخزر يسيطرون على مشارف بحر الخزر فيما بعد إتل عبر دلتا الفولجا، ومعنى هذه السيطرة أنهم يجبرون أساطيل الروس على الاستئذان منهم فى العبور وأداء مكوس قدرها عشرة فى المائة عما تحمل من بضائع، وهو أمر فيه إذلال لكبرياء الروس وعدوان على جيوبهم.

وظل الحال بين الروس والخزر على هذا المنوال، وكان الروس يهاجمون أراضى الخلافة الإسلامية فى تلك النواحى مثل غارتهم على آبسكون فى طبرستان، ويحرج هذا مركز الخزر ويهدد علاقاتهم الطيبة بالخلافة الإسلامية. وأكبر حادث من هذا القبيل وصفه المسعودى تفصيلا فى حوادث سنة ٣٠٠هـ (٩١٢ - ٩١٣م) فقال إن أسطولا روسيًا من خمسمائة مركب وعلى كل مركب مائة من الرجال، كان يقترب من أرض الخزر، (فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج.. راسلوا ملك الخزر

فى أن يجتازوا ببلاده وينحدروا فى نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر.. على أن يعطوه النصف مما يغنمون من هنالك من الأمم على ذلك البحر، فاباح لهم ذلك فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر وساروا مصعدين فى تلك الشعبة من الماء حتى وصلوا إلى نهر الخزر وانحدروا فيه إلى مدينة آمل (إتل) واجتازوها وانتهوا إلى فم النهر ومصبه إلى البحر الخزرى، ومن مصب النهر إلى مدينة آمل، وهو نهر عظيم، فانتشرت مراكب الروس فى هذا البحر، وطرحت سراياها إلى الجيل (جيلان) والديلم وبلاد طبرستان وآبسكون وهى على ساحل جرجان وبلاد النفاطة (باكو) ونحو بلاد أذربيجان. فسفكت الروس الدماء واستباحت النسوان والولدان، وغنمت الأموال وشنت الغارات وأحرقت من حول هذا البحر من الأمم).

وقد بلغ من أمر الروس أن نهبوا مدينة أردبيل، فلما أفاق الناس من هذه الغاشية وامتشقوا الحسام تقهقر الروس على ما جرت به عاداتهم وانسحبوا من الساحل إلى الجزائر القريبة من باكو. واستخدم الأهلون الزوارق والمراكب التجارية وحاولوا أن يطردوهم (فمالت عليهم الروس فقتل من المسلمين وغرق ألوف، وأقام الروس شهورًا كثيرة فى هذا البحر.. فلما غنموا وسئموا ما هم فيه داروا إلى فم نهر الخزر ومصبه فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم على ما اشترط عليهم.. وعلم بشأنهم اللارسية (وهم المسلمون المرتزقة فى خدمة جيش الخزر) وما فى بلادهم من

المسلمين فقالوا للملك الخزر: خلّنا وهؤلاء القوم، فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذرارى فلم يمكّنه منهم، وبعث إلى الروس وأعلمهم ما قد عزم عليه المسلمون من حربهم، وعسكر المسلمون وخرجوا يطالبونهم منحدرين مع الماء، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها، وكان المسلمون فى نحو من خمسة عشر ألفًا بالخيول والعدد، وكان مع المسلمين خلق من النصارى المقيمين بمدينة آمل، فقامت الحرب بينهم ثلاثة أيام، ونصر الله المسلمين عليهم فأخذهم السيف، فمن قتيل وغريق، ونجا نحو من خمسة آلاف وركبوا فى المراكب إلى ذلك الجانب مما يلى بلاد برطاس، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر فمنهم من قتله أهل برطاس ومنهم من وقع إلى بلاد البرغز إلى المسلمين فقتلوهم، فكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ نهر الخزر نحوًا من ثلاثين ألفا).

وهذه هى رواية المسعودى، ولو أنه يشوبها الهوى، ويبرز فيها ملك الخزر وغدا يلعب على الحبلين، ويوافق على أن يهاجم المسلمون الروس ويخبر فى الوقت نفسه الروس بما دبر لهم من كمين. ومهما يكن من تحيز المسعودى فى روايته، فهو يزودنا بلمحة عن تلك الألغاز التى كانت تحير ملك الخزر من سلطان ملك الروس. صحيح أنه كان لا يهمه النوازل التى كان ينزلها الروس بالشعوب التى تقطن سواحل بحر الخزر، لأن الزمن الذى كان يعيش فيه لم

يكن زمن عواطف ولا تعاطف، إلا أن غارة أخرى من هذا القبيل على أقاليم بحر الخزر، كانت قمينة بأن تثير حنق الخلافة فتصب جام غضبها على الخزر الأبرياء وينجو من هذا الغضب الروس لأنهم ليسوا فى متناول هذه الخلافة.

أجل كانت العلاقات بين الخزر وبين الخلافة الإسلامية يخيم عليها السلام، وإن كانت حرجة، وشاهد ذلك ما رواه ابن فضلان فى وصفه لسفارته إلى البلغار سنة ٩٢١ - ٩٢٢، إذ قال: (وللمسلمين فى هذه المدينة (أى إتل) مسجد جامع يصلون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع، وفيه منارة عظيمة وعدة مؤذنين. فلما اتصل بملك الخزر فى سنة ٢١٠هـ أن المسلمين هدموا الكنيسة (أى كنيسة اليهود) التى كانت فى دار البابونج أمر بالمنارة فهدمت وقتل المؤذنين وقال: لولا أنى أخاف ألا يبقى فى بلاد الإسلام كنيسة إلا هدمت لهدمت المسجد).

وهذا يدل على اهتمام الخزر بمصير اليهود فى غير ذلك من أنحاء العالم.

***

وختم المسعودى قوله السابق عن غارة الروس سنة ٩١٢ - ٩١٣م بأن الروس لم يكرروا ما فعلوه منذ هذه السنة؛ كتب المسعودى هذه سنة ٩٤٣م، وتشاء المصادفات أن يكرر الروس سنة ٩٤٣م غارتهم

على بحر الخزر باسطول أعظم وأضخم، لكن المسعودى لم يعلم بهذه الغارة الأخيرة. وقد أحس الروس بباسهم وقوتهم فعادوا إلى محاولتهم، ومن الأمور ذات المغزى أن هذه المحاولة اقترنت فى مدى عامين بحملتهم على البوزنطيين تحت قيادة إيجور الفخور الذى هلك بفعل النار الإغريقية.

***

واستطاع الروس وقت ذاك أن يثبتوا أقدامهم فى إقليم بحر الخزر باحتلالهم مدينة برذعة واحتفظوا بها سنة، غير أن الروس أتى عليهم الطاعون وتمكن الأذربيجانيون من طرد البقية الباقية منهم. ولم تذكر المصادر العربية أن الخزر لهم أى نصيب فى هذه الفضيحة، ولكن الملك يوسف ذكر هذا فى رسالته إلى حسداى بقوله: إنه يحرس مصب النهر ولا يسمح للروس بالقدوم بأسطولهم لغزو أرض العرب وإنه يشتبك معهم فى حروب طاحنة.

وكان قائد الحملة هو الأمير سفياتوسلاف بن ايجور من أولجا وهو الذى كان يمضى إلى القتال فى خفة الفهد، وقد قضى حياته فى الغارات والحملات ورفض التعميد برغم توسلات أمه، وكان فى رواية التاريخ الإخبارى الروسى لا يحمل فى حروبه عربات ولا أوعية للطهى ولا يسلق اللحم بل يكتفى بقطع شريحة من لحم الخيل أو الصيد أو البقر ويشويها على الفحم. ولم يكن ينام حتى فى الخيام، بل يفترش غطاء جواده وبرذعته تحت رأسه، وتاسى

حاشيته به، وكان يأبى أن يهاجم عدوه خلسة بل يبعث برساله إليه ليخبره بانه قادم لقتاله.

وهجم هذا الأمير، وعندما التقى بقبيلة صقلبية جنوبى موسكو سألها عمن تؤدى إليه الجزية فقالت إنها تؤديها للخزر، ولما علم الخزر بقدومه خرجوا لقتاله بقيادة أميرهم الخاقان فهزمهم سفياتوسلاف واستولى على قلعتهم سركل القائمة على نهر الدون، على أن التاريخ ذكر أن الروس غزوا الأوست والجركس وهزموا بلغار الفولجا، إلا أن أمير الروس سفياتوسلاف هزم على يد البوزنطيين وقتله حشد من البشناق وقطعوا رأسه واتخذوا من جمجمته كاسًا زينوها بالذهب وكانوا يحتسون فيها الشراب.

وقد قال عدة مؤرخين: إن انتصار سفياتوسلاف كان فيه نهاية الخزر، صحيح أن تدمير سركل سنة ٩٦٥م كان إيذانا بنهاية الإمبراطورية الخزرية، ولكنه لم يكن دليلاً على نهاية دولة الخزر، وبين أيدينا مثال حديث لذلك فإن القضاء على إمبراطورية النمسا والمجر سنة ١٩١٨ لم يكن يحمل فى طياته القضاء على الأمة النمساوية. صحيح أن سيطرة الخزر على القبائل الصقلبية التى امتدت إلى أرباض موسكو قد انتهت إلى غير رجعة، إلا أن قلب أرض الخزر بين القوقاز والدون والفولجا ظل سليمًا لم يمس، وظلت مشارف بحر الخزر أرضًا حرامًا على الروس.

وقتل سفياتوسلاف فشبت نيران الحرب الأهلية بين أبنائه، وخرج أصغرهم فلاديمير منها منتصرًا. وبدا هذا الأمير حياته وثنيًا مثل أبيه، وختمها مثل جدته أولجا، إذ تاب وأناب وندم على خطاياه واعتنق النصرانية.

فقد أدمن هذا الأمير فى شبابه الخمر، واستبدت به شهوته فكان زير نساء له ثلاثمائة محظية فى فيشجورود وثلثمائة فى بلجورود، ومائتان فى برستوفو. أجل كان غارقًا فى الرذيلة، يغرر بالنساء المتزوجات ويغتصب العذارى.

***

وكان لتنصره أثر باق فى التاريخ، سبقته مناقشات ومناظرات لاهوتية مع ممثلين للديانات الأربع، فقد تجاذبته المسيحية على مذهب الكنيسة الشرقية وعلى مذهب الكنيسة الغربية، وتجاذبته الديانتان الإسلامية واليهودية. فقد بعث إليه البلغار بعثة من المسلمين لحمله على الإسلام ووصفت له نعيم الجنة فأمن على كلامهم. فلما وصل إلى تحريم أكل الخنزير وشرب الخمر تقاعس وقال إن الشراب متعة الروس وهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدونه، ثم جاءه وفد ألمانى ليدخله فى مذهب الروم الكاثوليك فلما بلغ الوفد الحديث عن الصيام أبى فلاديمير الأخذ بهذه الفريضة. وهنالك جاء دور اليهود الخزر فسأل وفدهم عن السبب فى أن اليهود

لم يعودوا يحكمون بيت المقدس فردوا عليه بأن الرب غضب على أجدادهم وشردهم بين الكفار لما ارتكبوه من آثام. فعاد الأمير يسألهم كيف يأملون فى أن يهدوا غيرهم وهم أنفسهم مشردون مبعثرون بمشيئة الله، هل ينتظرون أن نقبل منهم نحن هذا المصير أيضا.!!

وأخيرا جاء دور الفقيه الذى بعثه إليه أروام بوزنطة، وقد بدأ هذا الفقيه يسب الإسلام، واتهم اليهود بصلب الرب، كما اتهم الروم الكاثوليك بتحريف الشعائر، فتردد الأمير فلاديمير فى قبول هذا المذهب، ثم خرج فى حملة على خيرسون فقطع عنها مورد الماء فسلمت المدينة، ثم بعث إلى الإمبراطور بازل والإمبراطور قسطنطين اللذين كانا يتقاسمان الحكم وقت ذاك، قائلاً لهما:

انظرا: لقد استوليت على مدينتكم المجيدة. وقد سمعت أن لكما أختا لم تتزوج بعد، فإن لم تزوجونى إياها فعلت بمدينتكم ما فعلت بخيرسون).

فأجابه الإمبراطوران بانه إذا تنصر فإنهما سيزوجانه أختهما وسوف يرث بذلك مملكة الله ويصبح أخاهما فى الدين.

وهكذا تنصر سانت فلاديمير.

وكان تنصر هذا الأمير انتصارًا مشهودًا للدبلوماسية البوزنطية، وقد قال الأستاذ فرنادسكى فى ذلك: إنه من التحولات المفاجئة فى التاريخ التى تجعله ساحرًا أخاذًا، وإنه لمن الطريف أن يتفكر المرء

فيما يمكن أن يكون عليه مجرى التاريخ لولا ان الأمراء الروس اعتنقوا اليهودية أو الإسلام بدلاً من اعتناقهم المسيحية.

على أن الروس كانوا يحتاجون إلى حلفاء أكثر من حاجتهم إلى الاستقلال، كما أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بالرغم من فسادها، كانت حليفًا تشتد الرغبة إليه من حيث السلطان والثقافة والتجارة أكثر من الحاجة إلى إمبراطورية الخزر المتداعية. ومن الواضح أن خيرسون كانت جزءًا من الثمن الذى دفعته الإمبراطورية الرومانية الشرقية شانها شان زواج الأمير فلاديمير بالأميرة آنا، ولكن أهم ما فى الصفقة كان نهاية تحالف البوزنطيين والخزر على الروس وبداية تحالف البوزنطيين والروس على الخزر، وهكذا نتبين ما اتسمت به سياسة الإمبراطورية الرومانية الشرقية من واقعية، ذلك أن العصر كان عصر المصلحة وليس عصر العواطف.

***

غير أن هذه السياسة برغم واقعيتها الظاهرة كانت قصيرة النظر، وشاهد ذلك ما قاله المؤرخ المشهور بيورى من أن المبدأ الأول الذى كانت ترتكز عليه سياسة الإمبراطورية الشرقية فى هذه النواحى من العالم كان يقوم على تدعيم السلام مع الخزر، وكان هذا هو النتيجة المباشرة. لموقع إمبراطورية الخزر الجغرافى الفريد بين الدنيبر والقوقاز، وظل أباطرة الرومان يسيرون على هذه

السياسة منذ القرن السابع الميلادى حين سعى هرقل إلى الاستعانة بالخزر على بلاد فارس حتى القرن العاشر الذى اضمحل فيه سلطان إتل. وكان من مصلحة الإمبراطورية الرومانية أن يهيمن خاقان الخزر على قبائل الهمج المجاورة له هيمنة فعالة.

أما بعد فقد انتقلت هذه الهيمنة الفعالة من خاقان الخزر إلى خاقان الروس أمير كييف، ولكن هذه الهيمنة لم تفعل فعلها بهذا الانتقال، ذلك أن الخزر كانوا قبيلة تركية من قبائل الفيافى، استطاعت أن تتعامل مع موجة إثر موجة من الغزاة الترك والعرب فقد قاومت وأخضعت البلغار والبرطاس والبشناق والغز وغيرهم. غير أن الروس ورعاياهم الصقالبة لم يكونوا ندًا لمحاربى الفيافى البدو واستراتيجيتهم المرنة وحركاتهم الحربية التى يعتمدون فيها على حرب العصابات. وانتهى ذلك بانتقال مراكز السلطة الروسية شيئا فشيئا من الفيافى الجنوبية إلى الأراضى الشجراء فى الشمال أى إمارات غاليسيا ونوفجورود وموسكو، وأدخل البوزنطيون فى حسابهم أن كييف سوف تلعب دور إتل فتكون حارسة لأوربا الشرقية، ومركزًا من مراكز التجارة، فاختل هذا الحساب وتدهورت كييف سريعًا.

وقد ترك ذلك فراغًا فى السلطة ملأه البدو الغزاة، وهم شعبة من الغز الذين احتقرهم رحالتنا ابن فضلان، وهؤلاء الوثنيون الأعداء الذين لا دين لهم كما وصفهم التاريخ الإخبارى الروسى،

كان يسميهم الروس بولوفستى، ويسميهم البوزنطيون القومان، ويسميهم الهنغاريون القون، ويسميهم زملاؤهم الأتراك القفجاق. وكانوا يحكمون الفيافى حتى هنغاريا من القرن الحادى عشر الميلادى حتى القرن الثالث عشر حين غشيهم بدورهم الغزو المغولى. وقد خاضوا حروبًا كثيرة مع البوزنطيين. ودمر فرع آخر من الغز هو الفرع السلجوقى جيشًا بوزنطيًا عرمرمًا فى وقعة منزيكرد التاريخية سنة ١٠٧١م وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجين. وهكذا عجز البوزنطيون عن منع الأتراك من تحقيق السيطرة على معظم أقاليم آسية الصغرى (تركيا الحالية) التى كانت من قبل قلب الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

***

وقد غابت الفيافى الشرقية مرة أخرى فى دياجير العصور المظلمة فى أثناء حكم القومان الذى دام قرنين من الزمان، وما أعقبه من الغزو المغولى، وهكذا نجد أن التاريخ المتأخر للخزر قد طواه غموض أظلم من الغموض الذى غشى أصلهم.

ونحن نجد الإشارات إلى دولة الخزر فى الفترة الأخيرة من اضمحلالها مقصورة أو تكاد على المصادر الإسلامية، على أن ما ورد فى هذه المصادر يجعل كل اسم وتاريخ وواقعة جغرافية تقتضى تفسيرات وتعليلات شتى، وعلى ضوء ما ذكرناه نجد أن اضمحلال سلطان الخزر لم يتحقق بانتصار سفياتوسلاف، وإنما تحقق بدخول

فلاديمير فى النصرانية. ونحن نذكر أن التاريخ الإخبارى الروسى ذكر تدمير قلعة سركل فحسب، ولم يذكر تدمير قصبة الخزر إتل، ولا شك أن إتل قد نهبت وخربت، ولكننا لا نعلم من الذى نهبها وخربها. يقول ابن حوقل: إن الذى خربها هم الروس، وكان من الواضح أنه ظن أن خزران وإتل هما مدينتان مختلفتان، فى حين أنهما كانتا مدينة من توءمين. ويختلف ابن حوقل عن التاريخ الإخبارى الروسى فى ذلك. ويذهب المستشرق المشهور ماركار إلى أن إتل لم ينهبها روس سفياتوسلاف الذين لم يتجاوزوا سركل، وإنما نهبتها موجة جديدة من قراصنة الشمال. وتختلف المصادر العربية فى ذكر الوقائع، على أننا نجدها تتكلم عن (خروج) الخزر من بلادهم ثم عودتهم بمعونة المسلمين، يقول ابن مسكويه: إن الخزر دفعوا ثمن معونة المسلمين لهم واعتنقوا الإسلام إلا ملكهم. وتختم أقوال المصادر العربية المختلفة الرواية بقول البيرونى المتوفى سنة ١٠٤٨م من أنه شاهد إتل فى زمنه خرابًا.

وصفوة ما نخرج به من التاريخ الإخبارى الروسى والمصادر العربية فى حديثها عن النكبة التى حلت بالخزر سنة ٩٦٥م هو أن إتل خرّبها الروس أو غيرهم من الغزاة تخريبًا لا نعلم مداه، ولكن أعيد تعميرها مرة أخرى، وخرجت دولة الخزر من هذه المحنة ضعيفة بالغة الضعف. ومع ذلك فلا شك فى أنها عاشت فى حدودها المنكمشة مائتى سنة أخرى على الأقل، وربما كانت الحياة قد امتدت بها إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

وأول من ذكر بلاد الخزر من غير العرب بعد السنة المشئومة ٩٦٥م هو إبراهيم بن يعقوب فى رحلته، وكان هذا الرجل يهوديًا إسبانيًا وسفيرًا لأوتو الأكبر، وقد كتب إبراهيم سنة ٩٧٣م يصف الخزر بأنهم كانوا لا يزالون أمة زاهرة فى أيامه. ثم تلاه بحسب الترتيب التاريخى الإخبارى ليهود من بلاد الخزر بلغوا كييف سنة ٩٨٦م فى محاولاتهم الخائبة لإدخال فلاديمير فى دينهم.

وحين ندخل فى القرن الحادى عشر نقرأ أول ما نقرأ أخبار الحملة البوزنطية الروسية على بلاد الخزر سنة ١٠١٦م وفيها لقى الخزر هزيمتهم الثانية. ويروى هذا الحادث مصدر لا بأس بحجيّته هو الإخبارى كدرينوس البوزنطى الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى ويظهر أنه قد حشد لهذه الحملة حشد كبير من أسطول بوزنطى وجيش روسى. وذكر الخزر بعد ذلك فى التاريخ الإخبارى الروسى فى حوادث سنة ١٠٢٣، فقد ذكر هذا التاريخ أن الأمير متيسلاف تقدم لقتال أخيه ياروسلاف فى جيش من الخزر والكاشاك. وكان متيسلاف فى هذه الأيام يحكم إمارة تموطورخان المتمركزة حول مدينة تماطرخا الخزرية (هى الآن تامان) على الجانب الشرقى من مضيق كيرتش وجاء فى الأخبار سنة ١٠٣٠ أن جيشًا خزريًا هزم جيشًا غازيًا من الكرد وقتل منه عشرة آلاف رجل واستولى على معداتهم، وإذا صحت هذه الأخبار

خرجنا منها بان الخزر كانوا لا يزالون أحياء ناشطين يكيلون لغيرهم الضربات.

وكان الخزر لا يزالون أقوياء فى تموطورخان، ذلك أن التاريخ الإخبارى الروسى يذكر فى حوادث عام ١٠٧٩ رواية غامضة تقول إن خزر تموطورخان أسروا أولج وحملوه فى سفينة عبر البحار إلى تسارجراد (القسطنطينية). وبعد أربع سنوات تصالح أولج والبوزنطيون فسمحوا له بالعودة إلى تموطورخان حيث (ذبح الخزر الذين دبروا هلاك أخيه وتآمروا عليه).

وبعد ذلك بسنوات قلائل روى التاريخ الإخبارى الروسى فى حوادث سنة ١١٠٦ رواية تقول: إن القومان أغاروا على ضواحى زارتسك (غربى كييف) فأنفذ الأمير قوة لمطاردتهم بقيادة ثلاثة قواد: يان، وبوتياتا، وإيفان الخزرى. وكانت هذه الرواية آخر رواية ذكرت الخزر فى التاريخ الإخبارى الروسى القديم.

***

على أننا نجد فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر شاعرين فارسيين هما خاقانى (حوالى ١١٠٦ - ١١٩٠م) ونظامى (حوالى ١١٤١ - ١٢٠٣)، وقد ذكر هذان الشاعران فى ملحمتيهما أن الخزر والروس قد اشتركا فى غزو شروان فى حياتهما. ورواية هذين الشاعرين جديرة بان يؤخذ بها لأنهما قضيا الشطر الأكبر من حياتهما

يخدمان فى القوقاز، وكانا على علم وثيق بالقبائل القوقازية. ويتحدث خاقانى عن (خزر دربند) الذين جروا على عبور ممر دربند للإغارة على بلاد الكرج (جورجيا) فى الأيام الزاهرة الغابرة فى القرن السابع الميلادى.

وبدخولنا فى القرن الثالث عشر يزداد الظلام كثافة، ويجف مورد مصادرنا الشحيح تماما. على أن بين أيدينا إشارة واحدة لمصدر من شهود العيان الجديرين بالثقة، فقد ذكر الخزر باعتبارها أمة، وكان هذا بين سنتى ١٢٤٥ - ١٢٤٧م، وما وافى هذا التاريخ حتى كان المغول قد اكتسحوا القومان وأخرجوهم من آسيا وأوربا وأقاموا أكبر إمبراطورية بدوية رآها العالم، وقد امتدت هذه الإمبراطورية من هنغاريا إلى الصين.

وفى سنة ١٢٤٥ م أرسل البابا إنوسنت الرابع بعثة إلى باتوخان حفيد جنكيزخان حاكم الجزء الغربى من إمبراطورية المغول لاستطلاع احتمالات التفاهم مع هذه القوة العالمية الجديدة والحصول على معلومات عن مقدرتها الحربية، وكان على رأس هذه البعثة الراهب الفرنسسكانى كاربينى. وأتم كاربينى بعثته، ولما عاد إلى الغرب كتب كتابه المشهور فى تاريخ المغول، وقد ورد فى هذا الكتاب قائمة بالأقطار التى زارها، وأحصى الأقوام التى كانت تعيش فى شمال القوقاز، وذكر منها علاوة على اللان والجركس (الخزر الذين كانوا يتبعون الديانة اليهودية).

ومضى وقت طويل حتى انمحى ذكر الخزر من التاريخ، وقد ظل التجار الجنويون والبنادقة يشيرون إلى القرم بغازاريا، وتردد ذكر هذا الاسم فى الوثائق الإيطالية حتى عهد متأخر يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى، ولم يكن هذا الاسم إلا إحياء لذكر أمة طواها التاريخ فيما طوى.

***

على أن الخزر بعد أن انهار سلطانهم السياسى ظلوا يتركون أثرهم الخزرى اليهودى فى أماكن لم يكن يتوقعها أحد، وفى أقوام شتى مختلفة. ومن هذه الأقوام السلاجقة الذين يعدون المؤسسين الحقيقيين لتركية الإسلامية، وحوالى نهاية القرن العاشر الميلادى كان هذا الفرع من الغز قد انتقلوا جنوبًا حتى بلغوا أرباض بخارى، ومنها ظهروا فى آسية الصغرى البوزنطية واستعمروها. وهذا الفرع لا يدخل فى قصتنا عن الخزر دخولاً مباشرًا، فقد ولجوا من الباب الخلفى، ذلك أن الدولة السلجوقية الكبرى كانت فيما يظهر مرتبطة بالخزر، وهذه الصلة ذكرها ابن العبرى (١٢٢٦ - ١٢٨٦م) وهو من أكبر الكتاب والعلماء السريان، فقد قال ابن العبرى: إن أبا سلجوق، وهو دقاق، كان قائدًا فى جيش الخاقان الخزرى، وإن سلجوق نفسه مؤسس الدولة السلجوقية نشأ فى بلاط الخاقان. ويتحدث مؤرخ آخر معاصر لتلك الأيام هو ابن العديم صاحب تاريخ حلب فيقول عن والد سلجوق: إنه كان من أعيان الأتراك الخزر.

ومن هذا وغيره ندرك أنه كانت هناك علاقة بين الخزر وبين مؤسسى الدولة السلجوقية، وتلت ذلك فترة انقطاع الراجح أن السبب فيها كان هو دخول السلاجقة فى الإسلام، ومهما يكن من شىء فإن تأثير الخزر اليهود ساد ردحًا من الزمن بعد هذه الفترة من الانقطاع، وشاهد ذلك أن واحدًا من أبناء سلجوق الأربعة كان اسمه يهوديًا صرفًا وهو إسرائيل.

وننتقل الآن إلى عالم الأساطير والأدب الشعبى فيما ورد به إشارات عن الخزر، ذلك أن المؤرخين سكتوا عن الكلام عنهم بعد.

لقد كان التاريخ الإخبارى الروسى الأول من تصنيف الرهبان، وفى مقابل هذه الكتابات الكنسية كانت توجد كتابات دنيوية صدرت فى الحقبة المعروفة بحقبة كييف، وعرفت باسم (بيلنا). وهى ملاحم أو أغانٍ شعبية يدور معظمها حول فعال المحاربين الأبطال والأمراء شبه الأسطوريين. وكانت هذه الملاحم تنتقل بالرواية، وظل الفلاحون يتغنون بها فى القرى القاصية بشمالى روسيا فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى، ولم تذكر هذه الملاحم الخزر بالاسم وإنما ذكرت (بلاد اليهود) وسكانها (الأبطال اليهود) الذين حكموا الفياقى وقاتلوا جيوش الأمراء الروس، ويرى الأستاذ بولياك الذى أسلفنا ذكره أن بلاد الخزر المجاورة للشعب الروسى فى عهدها الأخير. إنما كانت هى (الدولة اليهودية) وأن جيشها كان جيشًا من اليهود.

وثمة جانب من الأدب الشعبى شبه أسطورى وشبه تاريخى عن الخزر، وقد بقى هذا الجانب حتى العصور الحديثة وفتن به دزرائيلى واستعان بمادته فى الرواية التاريخية التى كتبها وهى (قصة الروى العجيبة).

ذلك أنه حدثت فى القرن الثانى عشر ببلاد الخزر حركة قامت على محاولة بدائية لحرب صليبية يهودية ترمى إلى غزو فلسطين بقوة السلاح. وكان المحرض على هذه الحركة يهوديًا هو سليمان ابن دوجى (أو روحى أو روى) يعاونه ابنه مناحم وكاتب فلسطينى، وقد كتب هؤلاء رسائل إلى جميع اليهود قاصيهم ودانيهم فى جميع الأراضى المجاورة لهم وقالوا فيها: إنه قد حان الوقت لجمع شتات إسرائيل من جميع البقاع فى أورشليم المدينة المقدسة، وإن سليمان ابن دوجى هو إيليا وابنه هو المسيح.

***

وكانت هذه الدعوة موجهة فيما يبدو إلى الجماعات اليهودية فى الشرق الأوسط وكان لها أثر ضئيل. ومع أن الحركة المذكورة نشأت فى بلاد الخزر، فإن مركزها انتقل سريعًا إلى كردستان وتسمى مناحم باسم داود واتخذ لقب المسيح. وفى كردستان جمع داود جيشًا كبيرًا من اليهود المحليين ونجح فى الاستيلاء على قلعة أمادية الاستراتيجية شمالى شرق الموصل، وداعبته الآمال فى أن يقود جيشه إلى الرها، ويشق طريقه مخترقًا الشام إلى الأراضى المقدسة.

ويبدو هذا المشروع كله أقرب إلى مغامرات دون كيخوته فى حربه مع الطواحين. وقد بقيت ذكرى داود هذا فى أذهان اليهود.

ونسبت الكتابات الألمانية الصوفية والأخلاقية (درع داود) المسدس إلى داود هذا منذ القرن الثالث عشر، وظهر هذا الشعار على العلم اليهودى فى براغ سنة ١٥٢٧م.

opeikandl.com